أبو عبيدة بن الجراح
أمين هذه الأمة

مَن هذا الذى أمسك الرسول بيمينه وقال عنه:

«إن لكل أمة أمينًا، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجرَّاح».. ؟؟

مَن هذا الذى أرسله النبى فى غزوة ذات السَّلاسل مددًا لعمرو بن العاص، وجعله أميرًا على جيش فيه أبو بكر، وعمر.. ؟؟

من هذا الصحابى الذى كان أول من لُقِّب بـ «أمير الأمراء».. ؟؟

مَن هذا الطويل القامة، النحيف الجسم، المعروق الوجه،

الخفيف اللحية، الأثْرم، ساقط الثنِيَّتَيْن..؟؟

أجَلْ.. مَن هذا القويُّ الأمين الذى قال عنه عمر بن الخطاب وهو يجود بأنفاسه:

«لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيًّا لاستَخلَفتُه فإن سألنى ربى عنه، قلت: استَخْلَفتُ أمين الله، وأمين رسوله»..؟؟

إنه أبو عُبيدة.. «عامر بن عبد الله بن الجرَّاح»...

أسلم على يد أبى بكر الصديق فى الأيام الأولى للإسلام، قبل أن يدخل الرسول صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، وهاجر إلى الحبشة فى الهجرة الثانية، ثم عاد منها ليقف إلى جوار رسوله فى بدر، وأُحُد، وبقيَّة المشاهد جميعها، ثم ليواصِلَ سَيْره القويَّ الأمين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فى صحبة خليفته أبى بكر، ثم فى صحبة أمير المؤمنين عمر، نابذًا الدنيا وراء ظهره، مستقبلاً تبعاتِ دينه فى زُهد، وتقوى، وصمود، وأمانة.

* * *

عندما بايع «أبو عبيدة» رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أن ينفق حياته فى سبيل الله، كان مُدركا تمام الإدراك ما تعنيه هذه

الكلمات الثلاث - فى سبيل الله، وكان على أتم استعداد لأن يُعطى هذا السبيل كل ما يتطلبه من بَذل وتضحية...

ومنذ بسط يمينه مُبايعًا رسوله، وهو لا يرى فى نفسه، وفى أيَّامِه، وفى حياته كلها سوى أمانة استَوْدَعَه الله إياها لينفقها فى سبيله وفى مَرْضاته؛ فلا يَجْرى وراء حظ من حظوظ نفسه.. ولا تصرِفُه عن سبيل الله رغبة ولا رَهْبة..

ولما وفَّى أبو عبيدة بالعهد الذى وفَّى به بقية الأصحاب، رأى الرسول فى مسلك ضميره، ومسلك حياته ما جعله أهلا لهذا اللقب الكريم الذى أفاءه عليه، وأهداه إليه، فقال عليه الصلاة والسلام:

«أمينُ هذه الأمّة، أبو عبيدة بن الجرّاح»

* * *

إن أمانة «أبى عبيدة» على مسئولياته، لهى أبرزُ خِصاله.. ففى غزوة أُحُد أحسَّ من سَيْر المعركة حِرْص المشركين، لا على إحراز النصر فى الحرب، بل قبل ذلك ودون ذلك، على اغتيال حياة الرسول العظيم، فاتفق مع نفسه على أن يظَلَّ مكانه فى المعركة قريبًا من مكان رسول الله.

ومضى يضرب بسيفه الأمين مثلِه، فى جيش الوثنية الذى جاء باغيًا وعاديًا يريد أن يُطفئ نور الله..

وكلما استدرجته ضرورات القتال وظروف المعركة بعيدًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل وعيناه لا تسيران فى اتجاه ضرباته.. بل هما متجهتان دومًا إلى حيث يقف الرسول ويقاتل، ترقُبانه فى حرص وقلق..

وكلما تراءى لأبى عبيدة خَطر يقترب من النبى، انخلع من موقفه البعيد وقطع الأرض وثْبًا حيث يدْحَض أعداءَ الله ويردُّهم على أعقابهم قبل أن ينالوا من الرسول مَنالا..!!!

وفى إحدى جولاته تلك، وقد بلَغ القتال ذروة ضراوته أحاط بأبى عبيدة طائفةٌ من المقاتلين، وكانت عيناه كعادتهما تُحدِّقان كعينى الصقر فى موقع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكاد أبو عبيدة يفقد صوابه إذ رأى سهمًا ينطلق من يدٍ مشركة فيصيب النبى، وعمِل سيفه فى الذين يحيطون به وكأنه مائة سيف، حتى فرَّقهم عنه، وطار صَوْبَ الرسول، فرأى دمه الزكىَّ يسيل على وجهه، ورأى الرسول الأمين يمسح الدم بيمينه وهو يقول:

«كيف يُفلح قوم خَضَبُوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم»..؟؟

ورأى حَلْقتين من حلَقِ المِغفَر الذى يضعه الرسول فوق رأسه قد دخَلَتا فى وجنتى النبى، فلم يُطِق صبرًا.. واقترب يقبض بثناياه على حَلْقة منهما حتى نزعها من وجنة الرسول، فسقطت ثَنِيَّة، ثم نزع الحلْقة الأخرى، فسقطت ثنيته الثانية..

وما أجمل أن نترك الحديث لأبى بكر الصديق يصف لنا هذا المشهد بكلماته..

«لما كان يوم أُحُد، ورُمِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخَلَت فى وَجْنَتِه حَلْقتان من المِغْفر، أقبلْتُ أسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنسان قد أقبل من قِبَل المشرق يَطير طيرَانا، فقلت: اللهم اجعله طاعة، حتى إذا توافَيْنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا هو أبو عبيدة بن الجرَّاح قد سبقنى، فقال: أسألك بالله يا أبا بكر أن تتركنى فأنزعها من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم...

«فتركتُه، فأخذ أبو عبيدة بثَنِيَّته إحدى حَلْقتى المغفر، فنزعها وسقط على الأرض وسقطت ثنيته معه..

«ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى فسقطت... فكان أبو عبيدة فى الناس أثْرم.»!!!

وأيامَ اتسعت مسئوليات الصحابة وعَظُمت، كان أبو عبيدة فى مستواها دومًا بصدقه وأمانته...

فإذا أرسله النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة «الخَبَط» أميرًا على ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا من المقاتلين، وليس معهم من زاد سوى جراب تمر.. والمهمة صعبة، والسفَر بعيد، استقبل أبو عبيدة واجبه فى تفانٍ وغبطة، وراح هو وجنوده يقطعون الأرض، وزادُ كل واحد منهم طوال يوم حفنة تمر، حتى إذا أوشك التمر أن ينتهى، يهبط نصيب كل واحد إلى تمرة فى اليوم.. حتى إذا فرغ التمر جميعه راحوا يتصيَّدون «الخَبط» أى ورق الشَّجر بِقسيِّهم، فيسحقونه ويسفونه ويشربون عليه الماء.. ومن أجل هذا سميت هذه الغزوة بغزوة «الخَبَط»..

لقد مضوا لا يُبالون بجوع ولا بحرمان، ولا يعنيهم إلا أن ينجزوا مع أميرهم القوى الأمين المهمة الجليلة التى اختارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لها..!!

* * *

لقد أحب الرسول عليه السلام «أمين الأمة» أبا عبيدة كثيرًا.. وآثره كثيرًا..

ويوم جاءه وفد «نجران» من اليمن مُسْلمين، وسألوه أن يبعث معهم مَنْ يعلمهم القرآن والسنة والإسلام، قال لهم الرسول:

«لأَبْعَثَنَّ معكم رجلاً أمينًا، حَقَّ أمين.. حَقَّ أمين.. حَقَّ أمين».. !!

وسمع الصحابة هذا الثناء من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتمنى كل منهم لو يكون هو الذى يقع عليه اختيار الرسول، فتصير هذه الشهادة الصادقة من حظِّه ونصيبه..

يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

«ما أحبَبْتُ الإمارة قط، حُبِّى إياها يومئذ، رجاء أن أكون صاحبها؛ فرحْتُ إلى الظهر مُهَجِّرا، فلما صلَّى بنا رسُول الله صلى الله عليه وسلم الظهر، سلَّم، ثم نظر عن يمينه، وعن يساره، فجعلتُ أتطاوَلُ له ليرانى...

«فلم يَزل يلْتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجرَّاح، فدعاه فقال: اخرج معهم، فاقْضِ بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه.. فذهَب بها أبو عبيدة».. !!!

إن هذه الواقعة لا تعنى طبعًا أن «أبا عبيدة» كان وحده دون بقية الأصحاب موضع ثقة الرسول وتقديره..

إنما تعنى أنه كان واحدًا من الذين ظفروا بهذه الثقة الغالية، وهذا التقدير الكريم...

ثم كان الواحد، أو الوحيد الذى تسمح ظروف العمل والدعوة يومئذ بغيابه عن المدينة، وخروجه فى تلك المهمة التى تُهيئه مزاياه لإنجازها..

وكما عاش أبو عبيدة مع الرسول صلى الله عليه وسلم أمينًا، عاش بعد وفاة الرسول أمينًا.. يحمل مسئولياته فى أمانة تكفى أهل الأرض لو اغترفوا منها جميعًا..

ولقد سار تحت راية الإسلام أنى سارت - جنديًّا، كأنه بفضله وبإقدامه الأمير.. وأميرًا كأنه بتواضعه وبإخلاصه واحدًا من عامّة المقاتلين..

وعندما كان خالد بن الوليد.. يقود جيوش الإسلام فى إحدى المعارك الفاصلة الكبرى.. واستهلَّ أمير المؤمنين عمر عهده بتولية أبى عبيدة مكان خالد..

لم يكد أبو عبيدة يستقبل مبعوث عمر بهذا الأمر الجديد،

حتى استكتمه الخبر، وكتمه هو فى نفسه طاويًا عليه صدرَ زاهدٍ، فَطِنٍ، أمين.. حتى أتَمَّ القائد «خالد» فتحه العظيم...

وآنئذ، تقدم إليه فى أدب جليل بكتاب أمير المؤمنين!!

ويسأله خالد:

«يرحَمْك اللّهُ أبا عبيدة.. ما منعك أن تخبرنى حين جاءك الكتاب».. ؟؟

فيجيبه أمين الأمّة:

«إنى كرهتُ أن أكْسِر عليك حَرْبك، وما سُلْطان الدنيا نريد، ولا للدنيا نعمل، كلنا فى الله إخْوة».. !!!

* * *

ويصبح أبو عبيدة - أميرَ الأُمراء - بالشام.. ويصير تحت إمرته أكثر جيوش الإسلام طولاً وعرضًا.. عَتادًا وعددًا..

فما كنت تحسبه حين تراه إلا واحدًا من المقاتلين.. وفردًا عاديًا من المسلمين..

وحين ترامَى إلى سمعه أحاديث أهل الشام عنه؛ وانبهارهم بأمير الأمراء هذا.. جمعهم وقام فيهم خطيبًا..

فانظروا ماذا قال للذين رآهم يُفتنون بقوته، وعظمته، وأمانته..

«يـأيها الناس..

«إنى مُسلم من قريش..

«وما مِنْكم من أحد، أحمرَ، ولا أسْوَدَ، يَفْضُلُنى بتقوى إلا وَدِدْتُ أنى فى إهابه».. !!

حيَّاك الله أبا عبيدة...

وحيَّا الله دينًا أنجبَكَ ورسولا علّمك..

مسلم من قريش، لا أقل ولا أكثر.

الدين: الإسلام..

والقبيلة: قريش..

هذه لا غير، هَوِيَّته..

أما هو كأمير للأمراء، وقائد لأكثر جيوش الإسلام عددًا، وأشدها بأسًا، وأعظمها فوزًا...

أما هو كحاكم لبلاد الشام، أمره مُطاع ومشيئته نافذة..

كل ذلك ومِثْله معه، لا ينال من انتباهه لَفْتَة، وليس له فى تقديره حساب.. أىُّ حساب...!!

* * *

ويزور أميرُ المؤمنين «عمر بن الخطاب» الشام، ويسأل مستقبليه:

أين أخى..؟؟

فيقولون: مَنْ..؟

فيجيبهم: أبو عبيدة بن الجراح.

ويأتى أبو عبيدة، فيعانقه أمير المؤمنين عمر... ثم يصحبه إلى داره، فلا يجد فيها من الأثاث شيئًا... لا يجد إلا سيفه، وتِرْسَه ورَحْلهُ..

ويسأله عمر وهو يبتسم:

«ألا اتخذتَ لنفسك مثلما يصنع الناس»..؟

فيجيبه أبو عبيدة:

«يا أمير المؤمنين، هذا يُبَلِّغُنى المقِيل»..!!

* * *

وذات يوم، وأمير المؤمنين عمر الفاروق يُعالج - فى المدينة - شئون عالمه المسلم الواسع، جاءه الناعى، أن قد مات أبو عبيدة..

وأسبل الفاروق جفنيه على عينين غُصَّتَا بالدموع...

وغاض الدمع، ففتح عينيه فى استسلام...

وترحّم على صاحبه، واستعاد ذكرياته معه رضى الله عنه فى حنان صابر...

وأعاد مقالته عنه:

«لو كُنت مُتَمَنِّيًا، ما تمنَّيتُ إلا بيتًا مملوءًا برجال من أمثال أبى عبيدة»...

* * *

ومات أمين الأمة فوق الأرض التى طهرها من وثنية الفرْس، واضطهاد الرومان...

وهناك اليوم تحت ثرى الأرْدُنّ يَثوى رفاتٌ نبيل، كان مستقَرًّا لروح خَيِّرٍ، ونفس مطمئنة...

وسواءٌ عليه - وعليكَ - أن يكون قبره اليوم معروفًا أو غير معروف..

فإنك إذا أردت أن تبلُغه لَنْ تكون بحاجة إلى من يقودك إليه..

ذلك أنَّ عَبير رُفاته، سيَدُلك عليه...!!